الأزهر وبعثاته العلمية

للأستاذ محمود الشرقاوى

فى عدد الرسالة الأخير (٣٩٠) كتب الأستاذ الدكتور محمد البهى مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين مقالاً فيه صدق كثير ، كان عنوانه « شخصية الأزهر العلمية »

وقد قلت إن هذا المقال فيه صدق كثير ، وهذا أكبر ما يمكن أن يُمدح به كاتب فى هذا الزمن ، وفى هذا البلد الذى فيه قول الصدق من أكبر العيوب ومن أكبر الموبقات للذى يريد أن ينجح وأن يصل إلى ما يريد يسلك له كل طريق

وقد أثار هذا المقال الجيّد الصادق فى نفسى طائفة من الخواطر أعتقد أن فيها — هى أيضاً — صدقاً كثيراً وفيها صراحة ، وهذا حسبى

* * *

عند ما عاد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر منذ سنوات خمس ، كان من ضمن منهاجه الإصلاحى لتجديد الأزهر والتفكير الدينى بعثُ البعوث من علمائه ومن أساتذته إلى أوربا ، وكان ذلك فى رأينا أجرأ ما أقدم عليه شيخ للأزهر وأعظم مافكر فيه مصلح شرق بعد الشاذلى باشا[1] لتقويم الحياة العلمية فى الأزهر وتوجيه التفكير الدينى وجهة الحياة والنماء والإصلاح ، وتقويم هـذه الحياة العلمية وتوجيه هذا التفكير الدينى وجهة الخير ، هما أمتن العمُد وأرسخ الأسس للاصلاح الشامل فى مصر والشرق

وعلى هذا الأمل العريض قابلنا وقابل المخلصون من المصلحين اختيار البعثة الأولى من هذه البعوث الأزهرية إلى أوربا ، وكانت بعثة فؤاد الأول إلى فرنسا وانجلترا وألمانيا

وقام لوداعها فضيلة الشيخ الأكبر ومن خلفه العلماء والأزهريون ، ثم خطبها وخطبهم أنه سيجعل الأزهر وتجديده ونماء غرسه الإصلاحى فيه وديعة بين يدى هذه الطائفة المختارة من رجاله ومن أساتذته ؛ إذ يعودون من بعثاتهم وقد تلقحت ثقافتهم الأزهرية بلقاح جديد واستفادوا من جامعات أوربا طرائق تفكيرها ومناهج بحثها وخصائص إنتاجها العلمى

وكان جميلاً وكان حقاً ما تحدث به شيخنا الأكبر لو أن الأمور سارت إلى نهايتها كما بدأت

(١) الشاذلى باشا هو أول من نفذ فكرة إرسال البعوث العلمية من الأزهر فى قرننا الحاضر

وتبرمه من محاربة المسلمين لهذه الكلمة الجميلة البليغة ومطاردتها من كراسات التلاميذ مع دورانها على الألسنة والأقلام أمداً طويلاً ، فقد ذكر أنه وجد هذه الكلمة فى شعر شعراء الدولة الأيوبية (وإن كان نسى أن يعطينا بيتاً نسكن به الثورة الدائرة حول هذه الكلمة) ! ...

ومما أذكره فى تخريج الأستاذ الجارم بك لهذه الكلمة قوله : إن عائلة وزن فاعلة مشتقة من عال يعيل إذا افتقر ؛ فعائلة بمعنى مفتقرة ، وزوج الرجل وصغاره مفتقرون إلى من يعولهم ويعوّنهم — عال الرجل أهله كفاهم ومانهم وأنفق عليهم ، فعائلة فاعلة بمعنى مفعولة أى معولة ، وإنما استعمل فاعلة هنا مكان مفعولة لغرض بلاغى لا يخفى ، قال تعالى : فهو فى عيشة راضية . أى مرضى عنها .

وأحسبه قال أيضاً ما معناه : والمعنى البليغ فى أن العائلة بمعنى المعولة أنها تدفعه إلى الكد والسعى ، ولولاها ما جاهد ولا ثابر ، فكأنهم يعولونه . قال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . فقدم الأبناء على الآباء ، لأن الآباء بأبنائهم يرزقون ، أو كما قال ...

فعائلة إذاً صحيحة من حيث الاشتقاق اللغوى

ويحاول بهذه المناسبة أن أطلب إلى أستاذنا الجارم بك أن ينشر أمثال هذه المباحث القيمة مما تعرّض له فى الإذاعة وليس أولى بها من صحيفة « الرسالة » حتى لا تضيع مثل هذه الفرائد بداً فوق أمواج الأثير ، وأحسب الكثيرين من إخوانى المدرسين يؤيدوننى فى هذا المطلب والله المستعان

مصطفى محمد إبراهيم

وقد سافرت بعوث الأزهر إلى أوربا واستقر أعضاؤها في باريس وفي لندن وفي برلين يدرسون في جامعاتها . ومضت سنوات خمس عاد بعدها فريق من أعضاء هذه البعوث وقد أتم دراساته فيها ، وفاز بما قصد إليه من الألقاب العلمية والدرجات الدراسية

ومن قبل هذه البعوث أرسلت ثم عادت بعثة المرحوم الشيخ « محمد عبده » التي أرسلها الشاذلي باشا سنة ١٩٣١ إلى ألمانيا تدرست وفازت بما قصدت إليه من الألقاب والدرجات . وعاد هؤلاء وهؤلاء أساتذة في الأزهر يشرفون على توجيه الفرق النهائية في كلياته وتخصصاته ، حتى قام بعضهم يتساءل عن شخصية الأزهر العلمية ، ويريد أن يضع في الميزان إنتاج كبار العلماء وأن يحكم على القيمة العلمية لما ألف جماعة كبار العلماء

* * *

الأزهر محتاج إلى لقاح علمي جديد وإلى ثورة فكرية جديدة وإلى أسلوب من البحث العلمي قائم على الإخلاص للعلم وحده ، وعلى الشجاعة في سبيل العلم وحده ، وعلى حب الخير للعلم وحده والأزهر وحده . ولا يزال في الأزهر روح قوي راسخ من الرجعية والردة والعود لعهود الظلم والظلام . وما من أحد يستطيع أن يرفع الشعلة ولا أن يديم اطراد السير لهذه الخطوات البطيئة من خطى التجديد والإصلاح ، سوى أعضاء هذه البعوث التي أرسلها الأزهر من خلاصة رجاله ، ولهذا وحده أرسلهم وانتظرهم حين غابوا ورجاهم حين عادوا

وأعضاء هذه البعوث العلمية التي فهمت الروح العلمي في جامعات أوربا واستقام تفكيرها على طرائق البحث العلمي فيها ، هم الذين يعرفون ويقدرون ما هي الشخصية العلمية ، وما هو الاستقلال في التفكير ، وما هو النقد الإيجابي ، وما هي حرية البحث ؟ وهم الذين يعرفون ويقدرون مما شهدوا في جامعات أوربا وفي حياة أهلها ما هي قداسة الفكر

فهم بما عرفوا وما قدروا وما أحسوا هم النواة الطيبة والبذرة المباركة النامية لبعث هذه الطرائق وهذا الروح العلمي في الأزهر.

وهم الذين تنبعث من أفكارهم ومن نشاطهم ومن إخلاصهم لهذه الطرائق العلمية الجذوة الأولى لهذه الثورة الفكرية التي يحتاجها الأزهر ، والتي بها وحدها يأمن الأزهر وتأمن الحياة الدينية في مصر ما نخشاه من طغيان الرجعة وردة عهود الظلم والظلام .

ذلك ما فهمناه وارتقبناه حين اختيرت البعوث العلمية من رجال الأزهر ، ثم عادت لتفقد فيه الطليعة من الرواد في حياته الإصلاحية الجديدة

فهل يرى الأزهريون أن هذه البعوث تكوّن فيه الآن « البيئة العلمية » الجديدة ؟ ... وهل يرى الأزهريون أن لهذه البعوث طابعاً علمياً خاصاً تتميز به عن أشياخها الذين ذهبت هذه البعوث لتكمل بما ليس عند هؤلاء الأشياخ من فهم ومن ثقافة ومن تفكير ؟ ...

وهل يرى الأزهريون أن هـذه البيئة العلمية الجديدة لها « معسكر » خاص يتميز بنشاط خاص وبأسلوب خاص ، ويقصد في دراساته وفي إنتاجه وفي توجيهه التعليمي مقصداً خاصاً يقوم على حرية البحث وقداسة الفكر والشجاعة في مواجهة ما يلقون من عنت « المعسكر الآخر » القديم ؟ ...

وهل يرى الأزهريون أن هذه البيئة العلمية الجديدة تداجتذبت حولها مدرسة خاصة من تلاميذها ومن مشايعيها تكثر بهم جيش الحرية والتجديد في الأزهر وتحصن به نفسها وقوتها من جيوش الرجعية فيه ؟ ... وهي جيوش لها هجمات ، ولها هبوب بعد كل سكون

نحن نسأل ولا نحكم . ولو أننا لا نرى دليلاً على أن البعوث الأزهرية (بعثة الشيخ محمد عبده ومن عاد من بعثة فؤاد الأول) قد أقامت في الأزهر مدرسة للتجديد خاصة ولا نهجت فيه منهجاً دراسياً ولا تأليفياً خاصاً ولا لمّت حولها معسكراً جديداً يرفع معها وبعدها شعلة النور في الأزهر ، ولم يبد من آثار رجالها وإنتاجهم ما يدل على تميزهم على أشياخهم ، وقد ذهبوا ودرسوا في جامعات أوربا لتكمل ثقافتهم بما ليس عند هؤلاء الأشياخ

نحن لا نرى دليلاً ولا شبه دليل على وجود شيء مما ذكرناه

ونحن عند ذلك أمام واحد من فرضين : أن تكون هذه البعوث لم تفد شيئاً مما درست فى جامعات أوربا ولم ترتفع بتفكيرها عن أشياخها وعن زملاء أعضائها الذين لم يبعثوا ولم يدرسوا

وهذا فرض بعيد يوشك أن يكون ممتنعاً لما رأينا ونرى من تبريز هذه البعوث فى دراساتها الجامعية وفى درجاتها العلمية التى نالتها فى أوربا وفى البحوث التى نالت بها ما نالت من الدرجات . . .

أو أن تكون هذه البعوث العلمية قد أفادت من دراساتها الأوربية عقلية جديدة حرة وتفكيراً جديداً حرًّا ومنهجاً فى البحث جديداً حراً . وهذا ما نراه ونعتقد به

وعند ذلك لنا أن نسأل : لماذا إذن كانت هذه العقلية الجديدة الحرة عقيما ، وكان هـذا التفكير الجديد الحر متوارياً ، وكان هذا المنهج الجديد الحر مهجوراً من هذه البعوث فى دراساتها وإنتاجها وأثرها فى نفوس طلابها . . . ؟

لماذا لا يفيد أعضاء هذه البعوث بما أفادوا ولا يعلمون ما تعلّموا . . . ؟

وهل يتوجّه اللوم فى ذلك لهم أم أين يتوجّه . . . ؟

يقول صديقنا الدكتور البهى فى مقاله الذى فيه صدق كثير:

« فإلى أن تنشر رسائل جماعة كبار العلماء فينا ـ لأن عملهم وحده أمام التاريخ وأمام الحكم العدل هو الأساس الذى يبنى عليه الآن التقدير والاعتراف أو عدم الاعتراف بشخصية الأزهر العلمية ـ يجب علينا نحن الذين لم يصبحوا بعد من جماعة كبار العلماء إما أن نسعى فى أن نطلع غيرنا على أبحاثنا الشخصية ، وبذا نكون علماء ، أو نعمد إلى تناول عمل الجامعيين بالنظر العلمى فنؤمن بما يدعونه أو ندلم على موضع الدعاية فيه »

ونحن نرد عليه ما سأل فنقول :

إلى أن نرى أثركم وإنتاجكم وتجديدكم وما جعلتم فى الأزهر من بيئة علمية جديدة وثقافة جديدة وحرية جديدة فى البحث . سنقول إنكم لم تفيدوا شيئاً مما تعلمتم ولا تميّز لكم على من لم يبعث ولم يدرس فى جامعات أوربا ، أو أنكم لا تجدون من نفوسكم شجاعة ولا قوة لكى تكونوا منتجين ولا مفيدين

وذلك قول أقوله لصديقى كاتب مقال « شخصية الأزهر العلمية » وإلى أنداده أعضاء البعوث الأزهرية من أوربا

* * *

وقد كانت بعوث النهضة المصرية فى أيام محمد على الكبير وخلفائه سعيد وعباس الأول تكاد تكون فى مجموعها من طلبة الأزهر . تعلّم رجالها ثم عادوا فكانوا روّاد الحياة الجديدة والحضارة الجديدة فى مصر كلها ثم فى الشرق كله

ولكن الأزهر يبعث البعوث من رجاله ثم يعودون إليه يرجوهم لنفسه حياة جديدة وحرية جديدة وتفكيراً جديداً

فهل نجد عند رجال البعوث الأزهرية الجديدة هذه الحياة وهذه الحرية وهذا التفكير يبثّونها بين رجاله وبين أهله ؟

وهل نجد عند الأزهر نفسه ما يمكّن لهذه البعوث أن تعمل وأن تنتج وأن تفيد ؟

ذلك سؤال ندع الجواب عليه لمن يجيب !

محمود الشرقاوى